

اكتسبت العربية مرونة خلافة وأصبحت لغة ثقافة وحضارة

للأستاذ محمد زنيبر

استاذ في كلية الآداب (الرباط)

وجهة علمية بحث لا تتفوق على اللغات الأخرى في شيء، بل اننا اذا نظرنا الى وضعها في أول البعثة الإسلامية، نجدها متأخرة من حيث المرونة والملكة التعبيرية بالنسبة للغات حضارية معاصرة كاللغتين اللاتينية. وهذا أمر طبيعي ومعقول لانها كانت لغة بدو يعيشون في الصحراء وينتمون الى مجتمع بسيط التركيب لا تتجاوز حاجاته الأوليات الأساسية في العيش. نعم اكتسبت اللغة العربية مرونة فيما بعد وأصبحت لغة ثقافة وحضارة؛ ولكن ذلك تطلب زمنا ليس بالقليل.

والذي بوا اللغة العربية المكانة الممتازة هو القرآن، هو الدين. فقد أصبحت العربية مقدسة لأنها لغة الكتاب المقدس. وأصبح واجباً على المسلم أن يعرفها ولو بصورة مجملة ليستطيع أداء بعض الشعائر الدينية. وهكذا أقبل عدد من أبناء الشعوب المفتوحة على اللغة العربية. وما أهل القرن الهجري الثاني حتى أصبحت لغة ثقافة وكتابة. فالعلماء والمحدثون والقصاص يقرؤون بها الجمهور في مساجد المدينة والبصرة والكوفة. والكتاب من أمثال عبد الحميد وابن المقفع يوسعون نفسها ويلينون قناتها لتستجيب لضرورات الحضارة الإسلامية الناشئة. وقطعت العربية أشواطاً كبيرة وأدركت درجة التفوق، فاكسبت الى جانب مزاياها كلفة دينية مقدسة، مزايا أخرى ترجع الى ذاتيتها ودورها الأساسي كلفة امبراطورية عظيمة تلج الحضارة من كل الأبواب، وهكذا فرضت وجودها في العصر الوسيط، ولم يقتصر نفوذها على المسلمين وحدهم، بل انها انتزعت اعجاب طوائف غير مسلمة، كما نرى في مثال

ان المسألة التي تطرحونها في استفتائكم واضحة سهلة، لا تضع أي مشكلة في الجواب. ولست اعتقد ان هنالك من يجادل في كون اللغة العربية مدينة بانتشارها في العالم وبالأهمية التي أدركتها في التاريخ للقرآن. وبلغ من أهمية اللغة العربية في أول الإسلام ان عددا من اللغات الحضارية بالشرق والغرب اتحى امامها، اما بصورة نهائية او لمدة طويلة. فقد انقرضت اللغة اللاتينية بأفريقيا الشمالية. وهنالك لغات أخرى مثل السريانية والآرامية والنبطية والقبطية ازوت في بعض الاوساط الخاصة الضيقة ولم يعد لها ذكر. اما الفارسية، فقد تخلت لعدة قرون عن دعواها كلفة ثقافية، وغدا العلماء والمثقفون والفكرون الفارسيون لا يستفنون عن العربية كلما أرادوا ان يكتبوا او يؤلفوا او ينظموا الشعر، وكان أعظم شرف وفخر لهؤلاء الفارسيين هو ان يبرهنوا عن تفوقهم في الكتابة باللغة العربية، وكانوا بالفعل أول من خدم هذه اللغة. ولندكر هنا، على سبيل المثال، المكانة التي أدركها بعض الفارسيين ككتاب في العربية مثل الزمخشري، وابن العميد، والصاحب بن عباد، وأبي بكر الخوارزمي، والجرجاني. ولم تسترجع اللغة الفارسية مكانتها الا رويدا رويدا تحت عامل اليقظة القومية، من جهة، وانهلال الوحدة الإسلامية التي كانت تتمثل في دولة الخلافة العباسية، من جهة أخرى. على ان اللغة العربية طبعت اللغة الفارسية الحديثة بطابع نهائي.

فهل أدركت العربية هذا الانتشار، وهاته الأهمية لمزايا لغوية تختص بها ولا توجد في لغة أخرى؟ هذا ليس بصحيح. فاللغة العربية اذا نظرنا اليها من

المسيحيين بالاندلس الذين كانوا يثيرون سخط القساوسة لاقبالهم الشديد على اللغة العربية .

ومع ذلك ، فالفضل في انتشارها بآسيا وافريقيا يرجع قبل كل شيء الى القراءان . فنحن نعرف من التجربة التاريخية التي عاشتها الانسانية الى اليوم انه لا يكفي ان تكون اللغة جميلة متطورة مرنة راقية لتعرف الانتشار . فهذه اللغة اليونانية وهي ما هي في تاريخ العلم والحضارة لم تتجاوز حدود بلادها ، اللهم الا ما كان من الاوساط العلمية التي ظلت تهتم بها في اوروبا لانها مصدر غنى من مصادر الاشتقاق والنحت في ميدان ابتكار المصطلحات العلمية الجديدة . وهذه اللغة الفرنسية التي رغم تفوقها وجمالها ومزاياها لم تحظ بالذيوع الذي حظيت به اللغة الاسبانية ، مثلا . وكل هذا يدل على انه ليست هنالك علاقة بين انتشار اللغة ودرجة تفوقها وراقيها . بل هنالك عوامل تاريخية عاطفية هي التي ميزت بعض اللغات في العالم وجعلتها محظوظة نوعا ما .

وفي مثال اللغة العربية لا شك ان هذا العامل التاريخي العاطفي هو القراءان والدين . هذا فيما يخص الماضي ، طبعاً . اما في الزمن الراهن ، فقد

انضاف الى العامل الديني عامل آخر هو العامل القومي . فقد دخلت الشعوب العربية منذ القرن التاسع عشر في عهد جديد من تاريخها فاستيقظت من سبات القرون الوسطى وتحتررت من السيطرة الاجنبية ، سيطرة الاتراك العثمانيين الذين كانوا يستعبدونها باسم الدين والاخاء الاسلامي ، وسيطرة الغزاة الاوربيين الذين جاءوا في حملاتهم المتوالية لاستعمار العالم . وشعرت الشعوب العربية المختلفة وهي في غمرة المعركة التحريرية ان هنالك روابط قوية تجمع فيما بينها برباط وثيق . واهمها هي رابطة الثقافة والفكر التي تتمثل في اللغة العربية التي عاصرت الاجيال والقرون وعبرت الاحقاب والعصور وهي صامدة تمثل استمرار نوع من الثقافة والفكر والحضارة . وقد اصحت اليوم من اقدم اللغات واعرقها . وكل هذه اسباب وجيهة جعلت الشعوب العربية الناهضة اليوم تتشبث بهذه الشجرة العميقة الجذور ، الباسقة الفروع التي تحدث الزمن بشبابها المتجدد . وهذا العامل القومي هو الذي جعل اخواننا العرب المسيحيين في البلاد العربية لا يقلون اسهاماً عن العرب المسلمين في خدمة لغتهم ونشرها .

